دوبريه : مؤلف "ثورة في الثورة"

نموذج المثقف الثوري !

بقلم الياس سحّاب

عشرات العمليات السياسية (*) قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية ، وما يقارب من عشر روايات وأفلام ، أطلقتها في جميع أنحاء العالم ، لتكرس شخصية رجل المخابرات الاميركية « ٠٠٧ » وتدمغ العصر بطابعه ... ولكن شيئا ما ، كان ينطلق من التحرك الشعبي البسيط ، ليفسد كل هذه المخططات ، بالرغم مما يدعمها من طاقات مالية وتكنوقراطية خارقة ...

فمقابل الشعار السحري « ٠٠٧ » الذي أنفقت أميركا مئات الملايين من الدولارات لفرض سلطانه على العالم ، أطلقت جمهرة البوليفيين الفقراء ، وبمنتهى العفوية ، شعار « ١٠٠ » ، مشيرة به الى شخص المفكر الفرنسي ريجي دوبريه ، فكانت تغني له وهو في سجنه ينتظر مصيره :

« في سجن مظلم حقير
صفر صفر واحد ينتظر ... ينتظر
أن يموت في محاكمة
أو يموت بلا محاكمة » .

هذه التسمية « ١٠٠ » ، كان يقصد بها في البداية وصم دوبريه ، من قبل السلطات البوليفية ، بأنه جاسوس، شأنه شأن جيمس بوند ، ولكنه يعمل لحساب كوبا ...

فما هي الحقيقة التي ذهب دوبريه ينجزها في بوليفيا ، بعد أن سبقته الى هناك نسخ من كتابه « ثورة في الثورة » ؟ وما هي التهم التي وجهت اليه ليحكم عليه في شهر نوفمبر ١٩٦٧ بالسجن لمدة ثلاثين عاما ، رغم رسالة خاصة من ديغول لبرينتوس حاكم بوليفيا المطلق ؟

يقول الصحفي الانكليزي بيري اندرسون ، رئيس تحرير مجلة « نيولفت ريفيو » (مجلة اليسار الجديد) الذي امضى ثلاثة اسابيع في بوليفيا يبحث عن حقيقة قضية ديجي دوبريه يقول : « بدأ كل شيء في ٢١ ديسمبر ١٩٦١ . ففي ذلك اليوم تلقى ريجي دوبريه الذي يدرّس الفلسفة في جامعة هافانا بكوبا ، منتدبا من الحكومة الفرنسية ، رسالة سرية ، في غرفته بالطابق الحادي والعشرين في فندق « هافانا الحرة » . كانت تلك الرسالة من « ارنستو شي غيفارا » ، يقترح فيها عليه ان يكون أول صحفي يأخذ منه حديثا بعد عودته الى العمل السري .

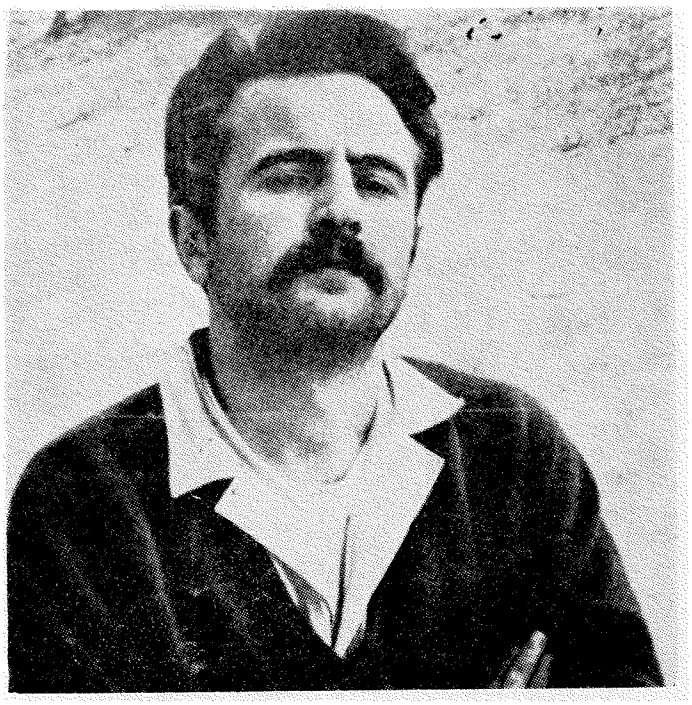

وقد كان هذا الطلب منطقيا من جهة غيفارا حتى قبل سنتين ، اذ كان دوبريه قد كسب ثقة المسؤولين الكوبيين عن طريق بحثين طويلين أعدهما عن استراتيجية الثورة في أميركا اللاتينية : « الكاستورية ، المسيرة العظمى لاميركا اللاتينية : « الكاستروية ، المسيرة العظمى لاميركا اللاتينية (١) ، (ظهر في مجلة « الازمنة الحديثة ») ، و « مشاكل الاستراتيجية الثورية » (ويرى القارىء ترجمة له ملحقة بهذا الكتاب) . كذلك كان دوبريه في ذلك الوقت يضع اللمسات الاخيرة في كتابه « ثورة في الثورة » الذي كتبه كحصيلة لمحادثات طويلة بينه وبين كاسترو .

وحسب تعليمات الرسالة كان على دوبريه أن يتوجه الى باريس ، والى مكتبة « لا جوا دولير » التي يملكها الناشر المعروف فرنسوا ماسبيرو (ناشر كتاب « ثورة في الثورة » وكتب أخرى لغيفارا وكاسترو) .

بعد شهرين من ذلك ، وبعد أن أنهى عمله في كوبا ، سافر دوبريه الى باريس . وفي الخامس عشر من فبراير ذهب الى المكتبة ، فتلقى رسالة ان عليه السفر الى « لاباز » عاصمة بوليفيا المعلقة على ارتفاع ٣٧٠٠ متر . وهناك ، سينتظره في الساعة السادسة من مساء كل ثلاثاء رجل اسمه أندريه ، أمام فندق « سوكر » .

(*) مقدمة كتاب « ثورة في الثورة » من تأليف ريجي دوبريه الذي يصدر هذا الشهر عن « دار الاداب » .

١ ـ اقرأ ترجمة له في كتاب « تجارب اشتراكية » ـ منشورات دار الاداب ، بيروت .

وسافر دوبريه الى « لاباز » التي أقام فيها مرة حين كان يجمع المعلومات لبحثيه الاولين . وكان دوبريه يحمل بطاقة صحفي يعمل لحساب دار ماسبيرو للنشر ، والمجلة المكسيكية الكبيرة « سوسيسرس » . ولم تعرقل الدوائر الصحفية الرسمية في بوليفيا مسألة الاعتراف بأوراقه الصحفية . وكان دوبريه بالطبع يستعمل جواز سفره الفرنسي الذي شهد قنصل فرنسا في لاباز بأنه كان متمما جميع الاجراءات القانونية المطلوبة بعد دخول دوبريه الى بوليفيا .

وبعد أن التقى دوبريه بأندريه سلمه هذا الاخير الى دليلة اسمها « تانيا » ، غادر معها لاباز باتجاه الجنوب في سيارة كبيرة من ذلك النوع الذي يطلق عليه البوليفيون ساخرين اسم « غوندولا » .

في الثالث من مارس ، وصل دوبريه ودليلته تانيا الى « سوكر » على مسافة ٣٥٠ كيلومترا من العاصمة ، وهناك نزلا في فندق « غراندي » في الوقت الذي كان قد سجل فيه رجل أرجنتيني اسمه في سجل الفندق تحت اسم « تروكتوزو » .. ولم يكن هذا الرجل غير الرسام الارجنتيني المعروف « سيرو روبرتو بوسنوس » .

وبقي الرجلان في « سوكر » حتى السادس من مارس ، ثم توغلا أكثر فأكثر نحو الجنوب . وبعد ذلك بأيام قليلة توجها الى كاميري ، في منطقة البترول . وهناك ، صعدا بتعليمات من تانيا الى الشمال قليلا ، الى منطقة تلال مزروعة بالاشجار ، وشبه مهجورة . ولم يكن دوبريه حتى ذلك الوقت يعرف الى أين تقوده الدليلة .

في بداية مارس كانت بوليفيا تبدو بلدا هادئا . كانت دكتاتورية الجنرال بارتينوس العسكرية التي جاءت الى الحكم قبل سنتين عقب انقلاب عسكري ، لا تتمتع بأي تأييد شعبي ، ولكن حتى ذلك الوقت لم تكن قد ظهرت أي علاقة تمرد ، بعد أن سحق تمرد عمال مناجم القصدير ـ أعداء النظام الاساسيين ـ في عام ١٩٦٥ .

كانت تانيا تقود دوبريه الى مزرعة « لاكازا كامارينا » حيث وجد نفسه فجأة في وسط معسكر للثوار ، وكان هذا المعسكر في الحقيقة هو المركز الذي انطلق منه العصيان بعد فترة قصيرة . وكان الاخوان كوكو ولوني بيريدو قد اشتريا المزرعة قبل ثمانية أشهر ، وكان الاخوان شيوعيين ، عرف فيما بعد انهما قائدا الثوار البوليفيين . وكان الاخوان بيريدو قد جمعا في المزرعة كميات ضخمة من السلاح والمؤن وأجهزة الارسال ، وأخذا يدربان رجال العصابات سرا . وكانا في نهاية كل أسبوع ينزلان الى مدينة « لاغوتيلاس » و « كاميري » ليعطيا الانطباع بأنهما من أصحاب المزارع المسالمين ، وكان أحد لا يشك فيهما .

لم يكن دوبريه حتى ذلك الوقت قد رأى غيفارا ، ولكن قيل له ان ذلك لن يتأخر . وكان دوبريه قد صمم على ألا تتجاوز اقامته مع الثوار أكثر من أربعة أيام أو خمسة ، ثم يسافر بعد ذلك لنشر تحقيقاته . ولكن الاحداث تسارعت . فقد نبه أحد مهندسي البترول السلطات الى حركة مشبوهة في منطقة « نانكاهوازوا » بينما كان دوبريه ينتظر في « كازا كارمينا » فارسل قطاع عسكري كبير لتحري الوضع ، فعجل وصول الجيش في اندلاع الثورة جنوبي بوليفيا ، حيث وقعت الكتيبة التي كان يقودها الكابتن سيلفا ، في ٢٣ مارس ، في كمين نصبه الثوار ، على ضفاف النهر ، فقتل ثلاثة ضباط واسر خمسة عشر رجلا .

وباندلاع الثورة ، ترك الثوار مركز « كازا كارامينا » وشكلوا وحدات متنقلة تجوب الغابات .

في هذه الظروف ، تمكن دوبريه أخيرا من مقابلة غيفارا ، في نهاية شهر مارس . وقد ذكر دوبريه فيما بعد ان هذا اللقاء لم يوفر له ظروف المقابلة الصحفية ، حيث كان غيفارا يقود الثوار في تلك الفترة العصيبة من العصيان ، مكبدا الجيش النظامي خسائر فادحة .

وفي أوائل أبريل ، كان دوبريه قد أنهى مهمته ، فقرر هو وبوستوس أن يغادرا منطقة الثوار ، فحاولا التوجه لمدينة غولیتارز الصغيرة شرقي كاميري ، ولكن الجيش النظامي كان قد احتلها فاضطرا لتغيير الخطة . وبعد اسبوعين من المرافقة الاضطرارية لرجال العصابات ، قررا تجريب حظهما في مويو بامبا ، في الطرف الاخر من منطقة العمليات . وفي التاريخ نفسه ، كان مصور انفلو ـ شيلي ، جورج روث ، قد ركب فرسا ، محاولا أن يبلغ منطقة الثوار . وكان روث ، الذي يعمل لحسابه ، قد رافق الجيش حيث التقط عددا كبيرا من الصور ، وتمنى لو يستطيع اتمام المهمة والتقاط بعض الصور في منطقة الثوار . وفي ١٦ ابريل ، ودع جورج روث قائد الجيش النظامي في لاغوتيلاس ، الذي كان يعرف نواياه .

وبعد يومين ، كان روث بقيادة أحد الفلاحين ، قد وصل الى منطقة الثوار حيث التقى بدوبريه وبوستوس. وكان الثوار الذين أثقل تحركهم وجود المدنيين الثلاثة معهم ، يسعون للتخلص منهم بأسرع ما يمكن . وبعد وصول روث بعشرة أيام ، أبعد الثوار المراسلين الثلاثة عن معسكرهم ، فبدأ الثلاثة مسيرتهم مشيا على الاقدام نحو مويو بامبا .

وفي السادسة من صباح العشرين من ابريل ، كان الرجال الثلاثة يخترقون المدينة الصغيرة ، باللباس المدني، ومن غير سلاح ، يحملون آلات التصوير ، ويحاولون استئجار سيارة « جيب » تقلهم الى « سوكر » ، ومنها الى « لاباز » ، عندما أوقفهم رجال المباحث (الشرطة السياسية في بوليفيا) . ولم يبد دوبريه في أولى فترات اعتقاله أي قلق ، فقد قال مثلا : انني أشهد بأنهم، في بوليفيا ، كثيرا ما يوقفون الصحفيين للتأكد من هوياتهم . وعندما قابل الكاهن الدومينيكي الفرنسي « الاب شوارتز » دوبريه ، وسأله عن ضرورة الاتصال

بالسفارة في لاباز ، أجاب دوبريه : لا داعي لذلك ، فسيطلقون سراحنا بعد ساعات ، مسألة تحقق من هوياتنا فقط .

وبينما هم موقوفون ، رآهم محرر جريدة « برسنسيا » الذي كان قادما من كاميري ومتوجها الى « سوكر » ، فشرثر معهم قليلا ، كزملاء أجانب ، ثم صورهم . كل شيء كان يبدو وكأنه يسير في مجراه الطبيعي ، الى أن تعرف سالوسنو شوكي ـ وهو أحد عمال المناجم الذين تخلوا عن الثورة ـ الى دوبريه وبوستوس ، فنبه البوليس ، وتولى البوليس ابلاغ المركز الرئيسي في لاغوتيلاس . وبعد ساعة كانت طائرة الهليكوبتر الوحيدة لدى الفرقة الرابعة تهبط في مويو بامبا ، لتأخذ السجناء الى ثكنة شوريني . ويقول دوبريه : « اعتقلوني في الثامنة صباحا ، وفي الثامنة مساء كانوا يعذبونني » .

وكان الذين تولوا تعذيب دوبريه من الضباط ، من رفاق الضباط الذين قتلهم الثوار ـ كما كانوا يدعون ـ وبعد يومين وليلتين من التعذيب ، فقد دوبريه وعيه ، في الوقت الذي كان فيه رفيقاه الآخران يعذبان أيضا . ولم تتوقف عمليات التعذيب الا عند وصول الميجور سانشيز ، فحلت الاسئلة محل التعذيب ، ثم جاء دور الخداع والمناورات . فقد عرضوا على دوبريه خبر وفاته في احدى الصحف الاجنبية ، وقالوا له : « ان أسهل شيء بالنسبة لنا الان هو أن نطلق عليك الرصاص فورا، فلماذا نقيم لك محاكمة علنية ، طالما أن الجميع يعتقدونك ميتا ؟ » .

ويضيف دوبريه في رسالته الشهيرة من السجن ، الى هذه التفاصيل كما رواها بيري اندرسون ، انهم لم يمتنعوا عن قتله رأفة به ، بل لانهم كانوا يعتقدون انه يملك معلومات خطيرة عن ثوار بوليفيا ، وشي غيفارا ، فقد سمعهم يقولون انهم يستطيعون الافادة منه وهو حي أكثر مما يفعلون وهو ميت . ويضيف دوبريه : أما سبب امتناعهم عن قتلي بعد أن يئسوا من أن أفشي بأية معلومات ، فقد كان لدافع آخر ، هو ان العالم قد عرف بعد ذلك انني ما زلت حيا ، فلم تعد تصفيتي الجسدية أمرا سهلا .

ولنعد الى رواية بيري أندرسون :

« بعد ذلك عرضوا على دوبريه اخلاء سبيله مقابل توقيعه على وثيقة يهاجم فيها الثوار ويتخلى عن كل معتقداته . كما حاولوا ، تحت التعذيب ، أن يأخذوا من بوسنوس شهادة ضد دوبريه . أما روث المسكين ، فقد كان لا يفقه شيئا مما يجري حوله ، نظرا لجهله بأهمية رفيقيه اللذين شاء له سوء حظه أن يرافقهما .

وبعد أربعة أيام من التحقيقات المتواصلة ، تلقى ضباط المخابرات البوليفية المساعدة من الولايات المتحدة الاميركية . ففي ٢٤ ابريل حضر عدد من عملاء المخابرات الاميركية ، والمنفيين الكوبيين . وبالفعل ، فان سجلات اوتيل « بيروت » بكاميري قد أدرج فيها اسما ضابطين أميركيين : الميجور ثيودور كيرش وجوزف كيلو (من غير اشارة الى رتبته) ، وليس صعبا استنتاج مهمتهما. وفي مايو ، وكان أي شيء عن مصير دوبريه ما زال مجهولا ، وصل نفر آخر من الضباط الاميركيين : العميد جوزف برايس والميجور كيرش (مرة ثانية) وجيمس ايفنس (من غير اشارة الى رتبته) » .

ولنترك رواية أندرسون عند هذا الحد وننتقل الى الرسالة التي بعث بها ريجي دوبريه من سجنه الى فرنسا بعنوان « ما أطلبه من رفاقي » ، لنجيب على أكثر من سؤال محير : هل اشترك دوبريه فعلا في حرب العصابات ، في الايام القليلة التي قضاها في بوليفيا ، وهل كان بالفعل يحمل رسالة من كاسترو الى غيفارا أو العكس بالعكس ؟

يقول دوبريه :

« لقد ذهبوا حتى فنزويلا وغواتيمالا ، يستحضرون من السجناء السياسيين شهادات ضدي ، ولكنهم لم يعودوا بأي دليل ، فقد كانت جميع الاسئلة ، من الصفع حتى المناورة ، هي اعادة ميكانيكية لتاريخ حياتي العادية، ولوظيفتي كصحفي مبعوث من ماسبيرو . وسقطت بذلك الدعوى التي حاولوا رفعها على كوبا ، فتحولوا لاقامة الدعوى علي .

كانت كوبا شيئا هاما بالنسبة لهم ، ففيها تسلمت الرسالة التي طلب فيها غيفارا مني التوجه الى باريس . يتحدث المستنطق في استجوابه عن « الفرنسي ـ الكوبي » وعن « تعليمات سيده كاسترو » ، ولكن لا بد انه (هو أو كاتب الاستجواب) قد استعار هذه الالفاظ من مجلة « ريدرز دايجست » وليس من ملف التحقيق نفسه ، الذي لا يوجد فيه الا الوقائع الشرعية . لذلك ، فقد لجأ بارتينوس الى أساليب أخرى لجر كوبا الى القضية ، فقد كان يشيع مثلا ان شخصي المتواضع سيتم استبداله بخمسين من السجناء عند كاسترو ، متابعا بذلك المناورة السياسية ، وهذا ما كان يجعلني أشدد على كوني مواطنا فرنسيا ، وأطلب حماية السفير الفرنسي . وكان تعلق قضيتي بالحكومة الفرنسية ـ لا الكوبية ـ هو اكثر ما يغيظ بارتينوس .

وبعد أن فشلوا طوال شهرين ، في اثبات مهمة العمالة علي ، أرادوا أن يثبتوا للرأي العام انني من رجال العصابات ، بل انني مسؤول وزعيم . وفي بداية الامر ، كانت القضية تتعلق بمناورة مؤقتة للالهاء . وكانوا يعلمون ان ذلك ليس صحيحا ، ولكنهم كانوا ينتظرون المزيد . فأجهزة الاستخبارات التي أجرت التحقيقات ، تعرف تماما ان هذه القصة ليست جدية ، وانه لو صح انني بالفعل قد التحقت برجال العصابات كمقاتل ، لبقيت مع العصابات ، ولما خرجت منها الا وأنا مقتول . بعد

فشل اللعبة حاولوا اقنـــاعي بالاعتراف بانتسابـي الى رجال العصابات .

ولما فشلت اللعبة مرة أخرى ، حاولوا اختراع قصة « المجرم » للاستهلاك الشعبي ...

واستمرت الاحـــوال على هذا المنوال حتى شهر يوليو ، حين خرجت من زنزانتي ، لاكتشف ان هنـاك شيئا اسمـــه « قضية دوبريـــه » ، وان الصحفيين يهتمون بها ، وانهم لم يجعلوا مني رجل عصابات فقط ، بل « المهندس الفكري لحرب العصابات » والمنفذ أيضا . وهذا كثير بالنسبة لرجل واحد. وأكبر دليل على استحالة هذا الامر ، هو انني لم أتعرض طوال شهرين ، لسؤال من هذا القبيل ، من قبل المحققين .

كنت ، بعفوية وبغير تصديق لهذا النوع من التهم ، أنفي كوني رجل عصابات . وكان هذا مزعجا ، خاصـــة بالنسبة لي . فالانتساب العميق لحرب العصابات كـان يتفق مع نواياي وخططي منذ وقت طويل . وحتى الان ، وطالما ان العالم هو ما هو عليه ، فاني لا أتمنى أن أمـوت في فراشي . ولكـــن « شي » قرر ان الوقت لم يحن لذلك ، وان من الافضل الاعلام عن حرب العصابات فـي الخارج . ونتيجة لذلك فقد شاركت في الحياة اليومية للمعسكر ، لان الوضع العسكري تطور بسرعة ومنعني من الخروج في الوقت الذي كنت أتوقعه ، ولكني لم اشترك في أية معركة ، حتى لا أجعل خروجي معرضا للشبهات ، اذا ما رآني سجناء أو ضباط . ومن جهة ثانية فان جيش الثوار كان له مفوضوه السياسيون الخاصون به (أحدهم ألقي حتفه ، كوكو بيريدو ــ وهو أحـــد أصحاب المزرعة التي بدأ فيها تدريب الثوار) ، والمعينون قبل مجيئي بمدة طويلة . أما كتابي « ثورة في الثورة » فقـــد قرىء في أحد معسكرات الانتظار ، في أثناء غياب المفوضيـــن السياسيين وغيابي ، وذلك بناء على مبادرة قادم جديد كان يحمل الكتاب في جرابه ، وقد استمع الى هـــذه القراءة الهاربان من حرب العصابات وشوكيه ــ شوكيه (الذين وشوا بدوبريه بعد ذلك) . ولكن اذا كان الكتاب يعبر بالفعل عن أفكار « شي » ، فانه لم يساهم أبـــدا في تنظيم حرب العصابات ، ولم يطلع عليه « شي » في طبعته النهائية الا في ابريل .

اني اذن أنفي كوني رجل عصابات ، لاني لم أكنـه بالفعل ، حتى ولو أصبحته بسبب بقائي فترة قليلة أطول. يقول تقرير عن اجتماع للجماعة القائدة ، عثر عليه فـي مخـــازن الارشيف ، وهو الان بين أيدي الجيش : ان دوبريه وبوسنوس ، اذا لم يتمكنا من الخروج ، فسيصبحان من رجال العصابات . ولا أدري اذا كانت هذه الوثيقـة ستستعمل ضدي .

كما اني أنكر أيضا انني كنت مفـــوضا سياسيا ، لانني لم أكنه ، كما لم أكن مسؤولا عسكـريا ، والجيش يعرف تماما كل هذا .

وأنا أعرف ان هذا النفي قد يؤدي الى التباسات . فالصحـــافة البورجوازية ، التي تفـــذيها التصريحات المزعجة لوالدي ، تطرح هذا النفي لتأكيد حق أو استحالة طبيعية لرجل القلم في أن يحمل بندقية ، والقول بـــأن المثقف الثوري معفي من الخدمة الثورية ، واستحالة قيام « كاتب » بتلطيخ يديه بالسلاح . مما يعطي تقريبا : « ابني ليس مجرما ، من تعتقدونه ؟ انه ولد شريف ، الخ ... » ان هذا لشيء سخيف ، فعنـدما يكتب المرء ما كتبت ، فيجب عليه بالضرورة ، الضرورة النظرية والخلقية ، أن يتحول يوما الى مجرد مقاتل من غير بندقية ، قـــلم سيىء ، ومن غير قلم ، بندقية سيئة ، لا يمكـن اذن أن تجعلوا مني روحا طيبة هائمة بالطبيعة ، هائمة في الجبال بفضـــل « كرمها » ، ليس قرارا من عندي ، ولكنهـــا ضرورات الكفاح ، وتقسيم العمل مؤقتا ، هي التي منعتني مـــن القتال ، ومن الانخراط نهائيا فـــي جيش التحرير الشعبي . وأنا حين أنفي انتسابي الى جيش التحرير ، انما أقرر واقعا ، وليس حقا غير موجود بالاعفاء .

وأني أطرح هذا السؤال احتراما لرجال العصابات أنفسهم : منذ متى كان رجل العصابات ، والقتال ما زال في أوله ، يهجر منطقة القتال ، حاملا حقيبة سفر فـي يده ، وجواز سفر في جيبه ، حتى مـــن غير مسدس يدافع به عن نفسه ؟ ان رجل العصابات يسقط وسلاحه في يده (كوكو بيريدو) . أو يسجن بعد أن يصاب بجرح فلا يستطيع الدفاع عن نفسه (فاسكوبتر) . حتى الذين يطردون من جيش التحرير ، لا يمكنهم النزول الى المدينة بثيابهم المدنية . ولو انني أستطيع التحدث باسم جيش التحرير ، كما يتحدث المقاتل المأسور في معركة ، لكان ذلك مدعاة سرور لي . ففـي النظرية التـي اخترتها ، ان الانتساب الوحيد الشريف ، هو انتساب المقاتل انتسابا كاملا . ان من سوء حظي أنني لم أكن كذلك . لذلك فانني لا أستطيع أن أهدي القضاة العسكريين أكذوبة لمجـرد تسهيل مهمتهم .

ومع ذلك فانني لا أدعي أبدا حالة البراءة ، وحصانة المثقف ، ولا أسعى لغسل يدي من الدم الذي سال . فاذا كانت الكتابة عمـــلا والتزاما ، فاني مسؤول عن تبرير وتمجيد حرب العصابات ، وأقبل هذه المسؤولية كامتياز. ولكني أطلب محاكمتي على ذلك ، على التحليل الذي كتبته للكفاح المسلح في أميركا اللاتينية ــ وحبذا لو كان هذا التحليل مفيدا لرجال العصابات .

ولكن لما كانت هذه المسؤولية ذات الطابع الخلقي ، التي أمثلها راضيا ، لا تقع تحت طائلة القانون الجزائي ، فقد نحتوا لي تمثال « لص » و « مجرم » ، فهذه الاسماء هي التي يطلقها على رجال العصابات أولئك السادة الذين تحمل ضمائرهم وزر قتل اكثر من عامل منجم ، واكثر من طالب . يدعون ، من غير اعتبار للسخف ، ان كتابي

ــ التتمة على الصفحة ٧٦ ــ

نموذج المثقف الثوري

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١١ ـ

« ثورة في الثورة » هو الذي أوقف ثورة بوليفيا على قدميها ، حتى يحاكموني حسب القوانين . عندما أقول انني لم أرتكب أية جنحة توقعني تحت طائلة القوانين الجزائية القائمة ، وعندما أرفض كل التهم التي حيكت ضدي حتى الان ، فاني لا أسعى الى التحلل من مسؤولياتي أو الاستشهاد بأي ميثاق يستنكر حمل السلاح ، مما يناقض النظرية التي أنتسب اليها ، ويناقض حياتي منذ عدة سنوات . انني فقط أعبر عن واقع ، لا يسبب لي أي رضى خاص .

« اني أتمسك أكثر من أي وقت مضى بالكاستروية كاستراتيجية وحيدة ، واقعية وصائبة ، نابعة من الظروف الحقيقية ، في معظم بلاد أميركا اللاتينية . قد أعدل كتاب « ثورة في الثورة » في بعض نقاطه الهامة التي لا أتفق فيها تماما مع غيفارا ، وذلك على ضوء تجربة الرفاق البوليفيين ومحادثاتي الاخيرة مع « شي » ، وقد أشدد على نقاط أخرى (التنديد بالاحزاب الشيوعية مثلا ، الذي يجده غيفارا في كتابي تنديدا شديد التردد) . ولكن يجب ، في الصعاب التي يجتازها الكفاح المسلح في بوليفيا ، أن نحتاط للتقلبات ، وخيانات الرجال (غير المتوقعة) والحزب (المتوقع ، ولكن ليس الى هذا الحد ، وبكل هذه الحيل) ، ولنظرية الكفاح الثوري التي وضعت موضع التنفيذ دون تردد .

ان تحليل هذا التاريخ هو من حق الذين عاشوه بكل تفاصيله .

وأصل الى النقطة الاليمة : الدعاية الباكية الكريهة التي أحاطت بها وصفي المجلات البورجوازية والواسعة الانتشار ، بتحريفه واخفاء معناه الحقيقي ، الذي يشير الى وضع تاريخي وليس الى وضع شخصي ، عندما كنت في الخباء لمدة شهرين ، لم أعرف بالطبع شيئا .

وبعد ذلك أمضيت وقتا طويلا ، وطويلا جدا ، حتى أكتشف في أي سيرك نصبوني مهرجا ، وكنت أكتشف ذلك كلما سمح لي بمطالعة الصحف البوليفية أولا ، ثم باستلام أنباء عن والديّ ، عن تصريحاتهما ومؤتمراتهما الصحفية ، واستلام مقتطفات من الصحافة الفرنسية .

وأود هنا أن أذكر بأن باب زنزانتي يفتح من الخارج ، وان الحراس لا يطلبون رأيي عندما يسمحون لمجموعة من المصورين بالدخول ـ سرا ـ او كذلك عندما أذهب الى المرحاض ، وعندما أمشي المئة خطوة في الساحة ، أو عندما أقابل أمي ، علنا ، لاول مرة ، ان هذا كله لاكثر من مشين .

ولم أكن أكتشف ان أية عبارة أطلقها من غير حذر أمام صحفي ستطحن وتعجن ويكون لها هذه الاصداء » .

وبعد أن يحمل دوبريه في رسالته بعنف على الاستغلال التجاري الرخيص ، والاستغلال العاطفي لمشاعر أبويه اللذين أحيطت بهما قضيته ، يخاطب أصدقاءه قائلا :

« لذلك فاني أطلب الى أصدقائي أن يصححوا الامور ، فبدلا من أن تكون « قضية دوبريه » مرآة للضمائر الطيبة الخجولة ، أو مورد رزق لتجار العواطف الاسبوعيين ، يجب استخدامها لتوعية الرأي العام قليلا حول مشاكل أميركا العامة ، مشاكل الكفاح المسلح ، والفاشية الاميركية الجديدة .

فليتوقف الحديث عن دوبريه ، الذي ما زال حيا حتى الان ومعرضا للاتهامات ، وهو جالس على كرسي الاتهام ، أكثر من عاهرة من سينيسينا ، وليكن الحديث عن ثوار بوليفيا وغيرهم ، عن أولئك الذين ماتوا في القتال ، أو الذين ما زالوا على قيد الحياة يقاتلون على أرض فظيعة الصعوبة .

فليرو تاريخ عمال المناجم ، عن تعرضهم لامراض الرئة وللذبح . ان وضع أفكار فيدل و « شي » موضع التنفيذ في خلق اكثر من فيتنام لانقاذ الفيتنام او القضاء نهائيا على صناع الفيتنام ، لا يحتاج الى رجال خارقين ، بل يحتاج من كل منا كثيرا من نكران الذات ، والكفر بكل شيء وربما بالحياة ، والصمود والعناد ، ومعدة تتحمل البقاء خاوية لعدة أسابيع .

عن هذا ، وعن هؤلاء يجب الكلام ، وليس عن محكوم بين ألف محكوم ، مؤمن له النوم والاكل على راحته ، ولعدة سنوات . ان قضيتي وسط اليونان وكولونيلاتها ، وأميركا اللاتينية وجنرالاتها ، وفيتنام وستمورلاند ، يجب أن تكون تافهة وضائعة كما تضيع الابرة وسط كومة من التبن . واذا ما بقيت هناك « لجنة من أجل دوبريه » فيحسن أن تخفف مجالات نشاطها لتبديل طابعها وتحويلها الى « لجنة من أجل الثورة الاميركية » ، أو شيء مشابه . ان الواجبات العملية موجودة ، وسأحاول أن أكتبها مرة ثانية .

اني آسف لعدم تمكني من تولي الدفاع عن نفسي بنفسي ، ولديّ كل أسباب الخوف من عدم سماح المحكمة لي بالخوض في النقاش الاساسي ، أو افساح المجال أمامي للكلام ، باستثناء الاعلان النهائي التقليدي . ان هذا الدفاع لا يمكن بالطبع أن يكون شخصيا وحسب أصول المرافعات ، ولكنه دفاع عن حرب العصابات بمجملها ، عن أعمالها الشرعية والضرورية ، شرعية لانها ضرورية . يجب الغوص في التفاصيل ، وليس هذا سهلا ، مقابل تهم القتل ، والسرقة ، ونصب الكمائن ، ليس في « قتال شرعي » بل في حادث اغتيال وخيانة ـ وهذه تهمة ملتوية وسخيفة ، ولكن لا بد من أخذها بحرفيتها لتفنيد سخفها ـ يجب عرض خلفية الحرب الثورية ، اليوم ، في أميركا اللاتينية .

هذا الدفاع الذي لا أستطيع المرافعة به ، لا بد من أن أصوغه مكتوبا ، ثم أنشره بعد ذلك في الخارج . فاذا كان بالامكان ربح المعركة الدعاوية ، فسيكون ذلك على الاقل متأخرا » .

وهكذا كان ، لم يسمح لدوبريه بالكلام طويلا ، وبحرية ، وحكم عليه بالسجن ثلاثين سنة ، ولكن ها هو كتابه يترجم الى اللغة العربية ، ولن تتمكن حكومة بوليفيا من منع ترجمته الى سائر لغات العالم ، كما لن تتمكن من انتشار أي فكر ثوري يتسرب من سجن دوبريه الى جميع أنحاء العالم .

وفي خضم الاحداث الكبيرة التي تجتازها منطقتنا العربية ، تتردد يوميا على سمع المواطن العربي كلمات « الحرب الشعبية » و « الكفاح المسلح » و « العمل الفدائي » ... هذه الشعارات لم تصل الينا الا بعد أن تبنتها شعوب أخرى ، ليس بأحرف كلماتها ، بل بجبال التضحيات والدماء ، والاخطار والارواح التي ذهبت سدى في المراحل الاولى ، الى أن اهتدى كل شعب الى الشكل الذي يلائمه من هذه الشعارات .

كذلك لا بد هنا من الاشارة الى ظاهرة تفشت عندنا مع انتشار هذه الشعارات ، وهي انصراف عدد كبير منا الى مطالعة تواريخ ثورات الحرب الشعبية المسلحة بقلم صانعها ... وقد أدى هذا في معظم الاحيان الى انقسام اعجابنا بالتجارب ، فأصبح هناك من ينادي بأفضلية التجربة الكوبية ، أو التجربة الصينية ، او الفيتنامية... ومطابقة كل واحدة من هذه الثورات على ظروف واقعنا العربي .

ليس كتاب ريجي دوبريه في هذا المجال حكما بين هذه النظرات المختلفة . انه كاستروي متعصب ، يعتقد ان التجربة الكاسترووية تلائم معظم بلاد اميركا اللاتينية.

وليست قيمة الكتاب على كل حال محصورة في هذا المجال .

أين تكمن قيمة الكتاب اذن ؟

قبل هذا الكتاب ، كان دوبريه قد التهم قراءة كل ما كتب حول الثورات المسلحة في قارتي اسيا واميركا اللاتينية .

ثم ذهب دوبريه يجوب أنحاء اميركا اللاتينية ، يستمع ، ويناقش ، ويراقب ، فوضع حصيلة هذه الجولات بحثين كبيرين أحدهما بعنوان « استراتيجية الثورة في أميركا اللاتينية » والاخر بعنوان « الكاسترووية، المسيرة الكبرى لاميركا اللاتينية » . ثم عاش دوبريه ـ كما يشرح في مقدمته ـ سنتين في هافانا ، بقرب كاسترو وبقية أبطال ثورة كوبا ، يناقشهم في كل مسائل الثورة المسلحة في اميركا اللاتينية .

وهكذا تأمن لروجيه دوبريه اطلاع على تفاصيل حركة الثورة المسلحة في اميركا اللاتينية عن طريق المعايشة ، وصلتها بالثورات الاسيوية ، عن طريق المناقشة والمطالعة ، ولعل هذا لم يتأمن لاي مفكر معاصر آخر .

هذه هي نصف قيمة الكتاب . أما النصف الاخر فيكمن في المنهجية الفكرية الشديدة الحيوية التي ناقش فيها دوبريه وعرض ما يعرفه من معلومات . فهو يشدد ، منذ مطلع الكتاب وحتى صفحاته الاخيرة ، على ان المقياس الاساسي لنجاح أية نظرية ، هو نجاحها في ميدان التطبيق ، ويرفع بذلك شعارا هاما متحركا هو شعار « الفعالية الثورية » ... لذلك نراه يركز كثيرا على شرح المخاطر العملية لنسخ التجارب الثورية نسخا آليا ، واستيرادها ـ كالبضاعة ـ من بلد الى بلد ... ولذلك نرى دوبريه ، رغم اعجابه الشديد بنموذج الثورة الكوبية، فانه لا يطلقه نموذجا صالحا للتطبيق في جميع أنحاء العالم ، ولكن أقصى ما يقوله عن هذا النموذج انه يلائم ـ في رأيه ـ ظروف معظم بلدان أميركا اللاتينية .

ورغم القيمة الفكرية الخطيرة للكتاب ، الذي ينطلق من أسس ماركسية ـ لينينية الى تحليل حركات الكفاح المسلح ، فان دوبريه في رسالته الشهيرة من سجنه في بوليفيا ، يوصي بأن كتابه ليس نهائيا ، وانه لو أعاد كتابته لادخل عليه كثيرا من التعديلات على ضوء تجربة « الرفاق البوليفيين » . ويضيف ان من حق الذين يعيشون تفاصيل تاريخ معين ، أن يكتبوا تحليلا لهذا التاريخ ...

ان أعظم ما يحتاجه المواطن العربي في مرحلة تكاثر شعارات الكفاح المسلح ومتفرعاته من حوله ، هو أن يمسك بزمام منهجية فكرية معاصرة ودقيقة ، تمكنه من ايجاد دربه وسط هذا الطريق الشائك ، فلا يكون الاندفاع العاطفي هو دليله الوحيد في الطريق .

ان كتاب دوبريه في هذا المجال ، هو أحد أخطر الكتب السياسية التي صدرت في القرن العشرين، يضاف الى الادب الماركسي معلما عصريا هاما وشجاعا من معالمه.

الياس سحاب

منشورات دار الاداب

تطلب في

الدار البيضاء (المغرب)

من

مكتبة دار العلم

للنشر والتوزيع

٤٠ شارع الملكي ـ الاحباس

تلفون ٦٢٣٠٩